

لِقَاءٌ

ظهرت الدولة الخوارزمية في مهدها كياناً سياسياً محدوداً في كنف السلطان السلجوقي بركياروق (٤٦٥ : ٤٨٥) هو أخيه السلطان سنجر (٤٩٠ : ٥٥٢) هـ في زمن كانت الدولة السلجوقية لاتزال تتمتع فيه بمظاهر قوتها وآيات عظمتها .

ولم يكن الحكام الأول الذين اختارهم السلاجقة لحكم إقليم خوارزم ينتمون إلى الأهالي فيه من ناحية المكان إلا أنهم كانوا يشاركونهم كما كانوا يشاركون السلاجقة في الانتماء إلى الجنس التركي الذي كان ينتشر في أواسط آسيا : تركستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان وخوارزم والقوقاز .

وقد تعرضت بحوث تاريخية سابقة لدولة الخوارزمية من زوايا متعددة منها على سبيل المثال :

– الدولة الخوارزمية والمغول ، للأستاذ حافظ أحمد حمدي، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م.

– الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ : ٦٢٨ هـ. للدكتور نافع توفيق العبود نشر جامعة بغداد سنة ١٩٧٨ م.

– التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية للدكتورة عفاف سيد صبره نشر دار الكتاب الجامعي بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م.

وقد ركز البحث الأول على علاقة الخوارزميين بالمغول، وانصب اهتمامه على حياة الخوارزميين في إقليم خوارزم موطنهم الأصلي، ثم تابع تحركات سلطانهم الأخير منذ فراره إلى الهند سنة ٦١٨ هـ حتى مصرعه في جبال

الأكراد قرب ميفارقين في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وأعطى هذا البحث تفصيلات مهمة عن حياة المغول ونظمهم المختلفة.

واهتم البحث الثاني بالعلاقات بين الخوارزميين والقوى السياسية المتصلة بهم ومنها الخلافة العباسية والغوريون، والأيوبيون، ثم عرض للنظامين العسكري والإداري في الدولة الخوارزمية، وتضمن هذا البحث عرضاً موجزاً لعلاقة الخوارزميين مع الصليبيين في الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري.

وأولى البحث الثالث اهتماماً خاصاً بالجانب السياسي في تاريخ الدولة الخوارزمية، ولم يهتم بجوانب أخرى شديدة الارتباط به والتأثير عليه وبخاصة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

والآن وبعد مرور اثنتي عشرة سنة على صدور آخر هذه البحوث ظهرت خلالها أجزاء مهمة من مخطوطات لم تكن محققة من قبل منها على سبيل المثال :

أ- « أخبار سلاجقة الروم » لابن البيبي وله ترجمتان عن الفارسية إلى العربية .

ب- « نهاية الأرب » للنويري الأجزاء من ٢٦ : ٣٣ .

ج- « تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب » لابن أبيك الصفدي .

كما توفر لي فيها العديد من المصادر التي لم تستند إليها البحوث السابقة منها على سبيل المثال :

أ- « أخبار الأيوبيين » لابن العميد .

ب- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» لأحمد بن إبراهيم الحنبلي .

ج- «صدق الأخبار» لابن سباط .

وقد هياً ذلك لي أن أعرض لفترة مهمة في تاريخ الخوارزميين ترتبط بوجودهم في الشرق الأدنى الإسلامي (الأناضول - بلاد الجزيرة - الشام) بعد مصرع سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي في شوال سنة ٦٢٨ / أغسطس سنة ١٢٣١ م .

وأخترت أن يكون منهاج البحث على النحو التالي :

١- تمهيد جغرافي عن بيئة الخوارزميين في موطنهم الأصلي للتعرف على أهم ملامحها التي انعكست على تكوينهم الجسمي والنفسي، وشكلت أنماط حياتهم العملية، وتدخلت أيضاً في تحديد علاقتهم بجيرانهم .

٢- عرض موجز سريع لأهم مواقف التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية .

٣- موضوع البحث ويمتد زمنياً بين عامي ٦٢٨ و ٦٤٤هـ، ويتضمن

عدة محاور :

أ- التمزق الخوارزمي في أواخر سنة ٦٢٨هـ .

ب- الهجرة الخوارزمية إلى كنف سلاجقة الروم بالأناضول في الفترة بين

عامي ٦٢٨ ، ٦٣٤هـ .

ج- الفرار إلى بلاد الجزيرة في الفترة بين عامي ٦٣٤ ، ٦٤١هـ وعلاقتهم

مع الأيوبيين والأرناؤة والخلافة العباسية .

ء - الارتحال إلى بلاد الشام في الفترة بين عامي ٦٤٢ و ٦٤٤هـ،

وصدامتهم مع الصليبيين في القدس وغزة ويافا .

هـ- التمزق الخوارزمي الأخير أسبابه وأهم نتائجه .

و- الخاتمة .

وأخيراً فقد اجتهدتُ، ولعلي أكون قد أصبتُ، وعلى الله قصد السبيل

فهو نعم المولى ونعم المعين.

القاهرة في ١٩/٦/١٩٩٨م

الدكتور

صبري عبد اللطيف سليم

إقليم خوارزم :

يقع إقليم خوارزم في عمق آسيا الوسطى حيث يحده من الشمال بحر آرال الذي يفصله عن منازل قبائل الأتراك القرغيز الذين كانوا يتحركون حول نهر أرتيش في اتجاه الغرب، ويحده من الجنوب مفازة الغز الأتراك التي تفصله عن إقليم خراسان الذي يشمل شرقي إيران^(١) . ويحده من ناحية الشرق نهر جيحون «أمورديا» الذي يكاد يفصله عن بلاد الأتراك في بلاد ما وراء النهر، كما يحده من ناحية الغرب بحر قزوين حيث يقيم هناك بعض قبائل الأتراك من القبجاق^(٢) .

ومن ثمة يمكن القول إن الخوارزميين ينتمون من حيث الأصل إلى الجنس التركي الذي غلب على معظم أجزاء آسيا الوسطى ويؤكد ذلك قول ياقوت الحموي الذي زار خوارزم سنة ٦١٦هـ «وفي وجوههم أثر للترك وفي طباعهم أخلاق الترك، وفيهم جلد وقوة»^(٣) .

من هذا التحديد الجغرافي يتضح أن «خوارزم» ليس اسماً للمدينة أي العاصمة وإنما هو اسم للإقليم كله، وتنقسم كلمة «خوارزم» إلى مقطعين «خوار» بمعنى اللحم و«رزم» بمعنى الحطب، وجري حذف إحدى الرائين استثقلاً لتكرارها، والمعنى الإجمالي أنها أرض اللحم والحطب، أي الطعام الوفور^(٤) ويؤكد ياقوت الحموي على ذلك فيقول بعد أن زارها سنة ٦١٦هـ

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧ .

(٢) الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٢٢٥، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٩ (انظر الخريطة) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٦، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٢٠ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٥ .

أي قبل سقوطها في أيدي المغول بعام واحد « فما رأيتُ ولاية قط أعمر منها، فإنها على ما هي عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة، كثيرة النذور، متصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة، والقصور في صحاريها قلما يقع نظرك على موضع لاعمارة فيه»^(١).

والمناخ في إقليم خوارزم شديد الصعوبة وبخاصة في فصل الشتاء حيث تجمد مياه الأنهار وبخاصة نهر جيحون، ولا ينع ذلك الأهالي من الحركة أو العمل حيث تعبر القوافل التجارية ثلوج الأنهار ذهاباً وإياباً^(٢).

ويتكلم الخوارزميون باللغة التركية، وهي تختلف بطبيعة الحال عن اللغة الفارسية التي يتحدث بها أهل خراسان^(٣) الواقعة جنوبي بلادهم ويبدو أنهم كانوا ينطقون لغتهم التركية تلك بلهجة خاصة يصفها ياقوت الحموي بقوله «وكلامهم كأنه أصوات الزراير»^(٤) أي العصافير.

أما الصفات الجسمية للخوارزميين فكانت واضحة فهم يمتازون بالطول والضخامة، وفي رؤوسهم عرض، ولهم جيهاث واسعة^(٥).

ويميز عنصر الطول الخوارزميين عن المغول المجاورين لهم والذين كانوا يتميزون بقصر القامة^(٦) ولا يقلل من ذلك أن جنكيز خان المغولي كان طويل القامة^(٧) كما كان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي قصير

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٦، والقزويني : آثار البلاد ص ٥٢٠.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧، الحميري : الروض المعطار ص ٢٢٥.

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج٢ ص ٦٩٩، الحميري : الروض المعطار ص ٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٦.

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٦.

(٦) محمد السيد غلاب : تصور الجنس البشري ص ٢٩٧.

(٧) الصيني . ف . بان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٧، فلاد ميير ستوف : حياة جنكيز

القائمة^(١) فكلاهما كان استثناءً على القاعدة في بني جنسه، والحقيقة أن المغول والخوارزميين لا ينتمون إلى أصل واحد مشترك، كما ظن ذلك بعض المؤرخين^(٢).

وأما صفاتهم النفسية فكانت تدل على أنهم أهل غلظة ونجدة وأصحاب عزيمة صلبة ومحبة في السفر، وبخاصة إلى خراسان^(٣) التي تفصلها صحراء الأتراك الغز عن بلادهم كما سبق القول.

وهم على الإجمال قد مرنوا على تحمل ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير^(٤) حتى صاروا موضع بأس ومنعة فهابتهم قبائل الأتراك الغز التي كانت مصدر خوف وقلق لجيرانهم، فكانت تهاب سطوتهم وتحذر من مصادرتهم^(٥).

وقد احترف الخوارزميون كثيراً من المهن، وأهمها التجارة حيث كانت أكثر ضياع خوارزم مدناً ذات أسواق ودكاكين، وفي النادر أن يكون هناك قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة^(٦).

وكانت أهم تجارات خوارزم الطعام والحبوب والفاكهة كما كانت تصدر منها ثياب القطن والصوف والحريير وسائر الأمتعة، وكان من غلات خوارزم

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢٧ ص ٢٩٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٥٠٦، ابن عريشاه: عجائب المقدر في نوائب تيمور ص ١٦، الديار بكري: تاريخ الحميس في أحوال أنفيس نفيس ج٢ ص ٣٦٨.

(٣) الأدريسي: نزهة المشتاق ج٢ ص ٦٩٩، الحميري: الروض المعطار ص ٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٦.

(٥) الأدريسي: نزهة المشتاق ج٢ ص ٦٩٩.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٦.

أيضاً الشمع ولحاء شجر الحور الأبيض الذي يتحد غلافاً للدروع، وغراء السمك والعنبر والعمل والخلنج^(١).

كذلك كانت خوارزم مركزاً لحركة بيع وشراء أشهر أنواع الفراء وأغلاها ومنها الفنك والسمور والشعالب وكانت تجلب إليها من بلاد البلغار على نهر الفولجا، كما نشطت بخوارزم أيضاً تجارة الرقيق من الصقالبة والأتراك الذين كانوا يجلبون صغاراً فيجربى تعليمهم الدين الإسلامي وآدابه، ثم يرسلون إلى سائر الأقطار الإسلامية^(٢).

وأهتم الخوارزميون بالزراعة فأكثروا من زراعة الأشجار وبخاصة شجر التوت والخلاف لاحتياجهم إليه لعمائرهم وطعم دود الإبريسم^(٣). كما كانوا يزرعون البطيخ الذي لا يوجد مثله في شيء من البلاد حلاوة وطيبة^(٤) كما كانوا يزرعون أيضاً العنب والسمس والأرز والقطن^(٥).

وأولى الخوارزميون الرعي اهتماماً واضحاً، فقد انتشرت المراعي في الشمال قرب بحر آرال «بحيرة خوارزم» حيث كانت تربي قطعان الأغنام التي يؤخذ منها الصوف، وقطعان الماشية التي تنتج أصنافاً كثيرة من اللبن والجبن^(٦).

وكان من الطبيعي أن يقوم على ذلك كله العديد من الصاعات المهمة،

(١) كي لسترج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص ٢٢٥، كي لسترج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٦.

(٤) القزويني: آثار البلاد ص ٥٢٠.

(٥) كي لسترج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق ج ٢ ص ٦٩٩، كي لسترج: بلدان خلافة شرقية ص ٥٠٣.

ومنها صناعة السيوف والدروع والقسي، وصناعة البسط وثياب اللحف والديباج المصنوع من القطن والحرير، وغيرهما من الثياب الملونة، وكذلك صناعة السفن من جذوع الأشجار للملاحة في الأنهار الكبيرة والصغيرة^(١).

ولم تكن مدينة «جرجانية» عاصمة خوارزم الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون إلا صورة واضحة لكل مدن هذا الإقليم، فقد كانت مدينة عامرة ذات أسواق^(٢) وربض وسور محيط بالربض، كما كانت مركزاً للتجارة مع الأتراك الغزاة^(٣) وكان أهلها يعملون بالصناعات الدقيقة آنذاك كالحداثة والنجارة، وكانوا يتحرون الدقة المتناهية في أعمالهم حتى إنهم تميزوا في صناعة الأدوات من العاج والأبنوس، كما كانت نساؤها يعملن بالأبرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة^(٤).

وكانت مساحة جرجانية تزيد على مساحة كثير من المدن الإسلامية المشهورة مثل مرو ونيسابور وبلخ^(٥) مما يؤكد على أهميتها التي أهلتها لتكون عاصمة الدولة الخوارزمية على اتساعها.

وقد شاهد ياقوت الحموي جرجانية بنفسه سنة ٦١٦ هـ قبيل سقوطها في أيد المغول فهو يقول عنها « فلم أعلم أنني رأيت أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، فاستحال ذلك كله بتخريب المغول إياها حتى لم يبق فيما بلغني إلا معالمها، وقد قتلوا جميع من كان بها^(٦) ».

(١) كي لسترخ : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢ .

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٩ .

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ٢ ص ٦٩٦ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٦٢ .

(٤) التزويني : آثار البلاد ص ٥٢٠ ، كي لسترخ : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢ .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص ١٦١ .

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٢ .

سلاطين خوارزم :

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهو عبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور^(١) التي تقع في أفغانستان الحالية.

ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المتسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدّمه إلى بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه حيث حظى بوظيفة الساقى^(٢). وقد هيات له هذه الوظيفة فرصة الترقى حتى عين شحنة على إقليم خوارزم سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م^(٣)، فاستمر مداوماً عليها حتى وفاته في سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م^(٤).

ولما كان أنوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمد إلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة^(٥) فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقى حين رأى الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي بركيا روق تعيينه والياً على إقليم خوارزم ولقبته خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ^(٦).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٦٧، النويري : نهاية الأرب ج٢٧ ص ١٩٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج٤ ص ٣٢٢، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٩.

(٣) الجويني : تاريخ جها نكشاي ج١ ص ٢٥٥، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٨٢، فامبري : تاريخ بخارى ص ١٤٧.

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٣٨٣، عبد النعيم حسنين : سلاحة إيران والعراق ص ١١٥.

(٥) الجويني : تاريخ جها نكشاي ج١ ص ٢٥٦.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٦٧، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمعزل

وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركيا روق في خامس جمادى الأولى^(١) فأبقى قطب الدين محمداً في منصبه، فظلّ هذا الأخير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم (٤٩٠ : ٥٢١ هـ) تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته^(٢).

وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرfan بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه، كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة في الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي.

ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد (٥٢٢ : ٥٥١ هـ) أن يصير على هذه الطاعة طويلاً، فخرج عن إطارها منذ عام ٥٢٠ هـ ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام ٥٣٣ هـ، ٥٣٨ هـ، ٥٤٢ هـ، وفي كل مرة كان آتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه!!^(٣).

وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان آتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاي الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة ٥٣٦ هـ عند قرية قطران التي تقع على

(١) ابن ناصر الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٧٧، البنداري : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق

ص ٢٣٦، النويري : نهاية الأرب ج٢ ص ٢٧٣ .

(٢) خواندمير : حبيب السير ج٢ ص ٦٢٩، عماس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٨٣ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٦، أحمد حلمي : السلاجقة في التاريخ

والحضارة ص ١١٥، ص ١١٧، فاميري : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .

خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك أغلب جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمذ، فسقطت بذلك بلاد ما وراء النهر كلها في أيدي القراخطاي^(١).

وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالماً في استحضار القراخطاي وتحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه أضطر أمام تفاقم خطرهم، وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع لهم خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف دينار^(٢).

أما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل الغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعت هذه الهزيمة عند مدينة مرو سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وفيها قُتِلَ قواد سنجر، ووقع هو مع زوجته في الأسر^(٣).

وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران أبان الفترة الأخيرة من حكم سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسان بشرواته الطبيعية.

وعلى هذا لم توقف وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من

(١) البنداري: مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٥٤، الذهبي: العبر في خير من غير جء ص ٩٨، وتقع ترمذ على شاطئ نهر جيحون من جانبه الشرقي في مواجهة مدينة بلخ على الضفة الأخرى.. انظر.. كي لسترغ: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٤.

(٢) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٨٥، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٥٤، فامبري: تاريخ بخارى ص ١٤٩.

(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران ص ٣٧٩، عبد لتعميم حسين، سلاحقة إيران والعراق ص ١٢١.

جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م^(١) أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧^(٢) حتمية الصراع بين الطرفين، فقد شرع إيل أرسلان بن اتسز (٥٥١-٥٦٨هـ) في بسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر^(٣).

وأخيراً تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن ايل أرسلان (٥٦٨ : ٥٩٦هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق^(٤) فأضحت أملاك الدولة الخوارزمية متاحة لأراضي الخلافة العباسية.

ولم يؤد هذا التجاور المكاني إلى نتيجة حاسمة ترضى الطرفين فالخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ : ٦٢٢هـ) والذي حرّض الخوارزميين على محاربة السلاجقة أملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قد أدرك بجلاء أنه استبدل خصماً هراًماً بآخر فتى عنيد، فهؤلاء الخوارزميون القادمون من الشرق لن يكتفوا باحتلال أملاك السلاجقة فحسب، وإنما ستمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها والتي تمثلت

(١) الحويني : تاريخ جنبنا نكشاي ج١ ص ٢٦٥، أحمد حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ١١٨.

(٢) النويري : نهاية الأرب ج٢ ص ٢٨٩، الذهبي : العبر ج٤ ص ١٤٨، فامبري : تاريخ بخارى ص ١٥٠.

(3) Skrim & Ross: the Heart of Asia. P. 140

وانظر أيضاً .. دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها ص ٦٢ وعماس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٢٣.

(٤) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٥١٣، ابن ناصر الحسيني : زبدة التواريخ ص ٣١٣.

في فرض اسمهم على الخطبة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلو عليها^(١).

ولم تغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه (٥٩٦ : ٦١٧هـ) عاود الخوارزميون المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى اتباع نهجه القديم، فشرع في استعداد الغوريين على الخوارزميين^(٢) ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل إنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (٦٠٧ : ٦١٨هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودمبار، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية، واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة^(٣).

وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في إحكام سيطرتهم على إيران كلها، ففي الشمال تم الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين وضمه سنة ٦٠٦هـ إلى دولتهم^(٤) وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان سنة ٦٠٧هـ ثم إقليم مكران سنة ٦١١هـ، وتضمن ذلك الساحل المطل على

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢١٣، فامبري : تاريخ بخارى ص ١٥٧، فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ٦٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٦٣، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمنول ص ٣٧.

(٣) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٣٢، ص ٣٣٣، عفاف صره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ١٤١.

(٤) الجويني : تاريخ جنبا نكشاي ج٦ ص ٣١٥، النويري : نهاية الأرب ج٧ ص ٢١٥.

الخيوط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم^(١).

وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتراء مدينتي هراة وبلخ سنة ٦٠٣هـ، وهما من أملاك الدولة الغورية^(٢)، التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم سنة ٦١٢هـ^(٣)، فأل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش.

وفي غضون ذلك كان الخوارزميون قد حققوا نجاحاً باهراً حين تمكنوا سنة ٦٠٦هـ من هزيمة دولة القراخطاي وتقليص نفوذها عن أهم بلاد ما وراء النهر (سمرقند - بخارى)^(٤).

وموجز القول هنا، إن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها، وأضحى اصطدامها بالخلافة العباسية وشيكاً، وبالفعل سار السلطان الخوارزمي سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد، واستطاع أن يوطد نفوذه في غربي إيران وبخاصة في مدن الري وقزوین وقم وساوه وهمذان وغيرها^(٥).

وقد بادر العديد من الحكام المحليين - الذين توهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أنهم من حلفائه - وعلى رأسهم كل من الأتابك سعد الدين

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٠٥، النویری: نهاية الأرب ج ٢٧، ص ٢١٤، ص ٢١٥.

(٣) عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ١١٦، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ١٢١.

(٤) الجويني تاريخ حبا نكشای ج ٢ ص ٣١٩.

Schneider: Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources vol. II. p. 51

(٥) ابن الوردي: نعمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٣٤، بن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٩.

ابن دكلا، صاحب أتابكية فارس، والأتابك أوزبك بن البهلون صاحب أذربيجان وآران إلى إعلان الولاء للسلطان الخوارزمي وذلك بذكر اسمه في الخطبة على المنابر^(١).

ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر بن طاهر الحسيني ونصبه خليفة، وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة^(٢).

ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدي الخطير من قبل الخوارزميين، بعد أن رأى بنفسه تهاوى حلفائه تبعاً تحت وطأتهم، فبادر إلى مراسلة خاقان مغول جنكيزخان^(٣) - الذي ذاع صيته في الشرق - كي يضغط من جهته على الخوارزميين بكل وسيلة ممكنة.

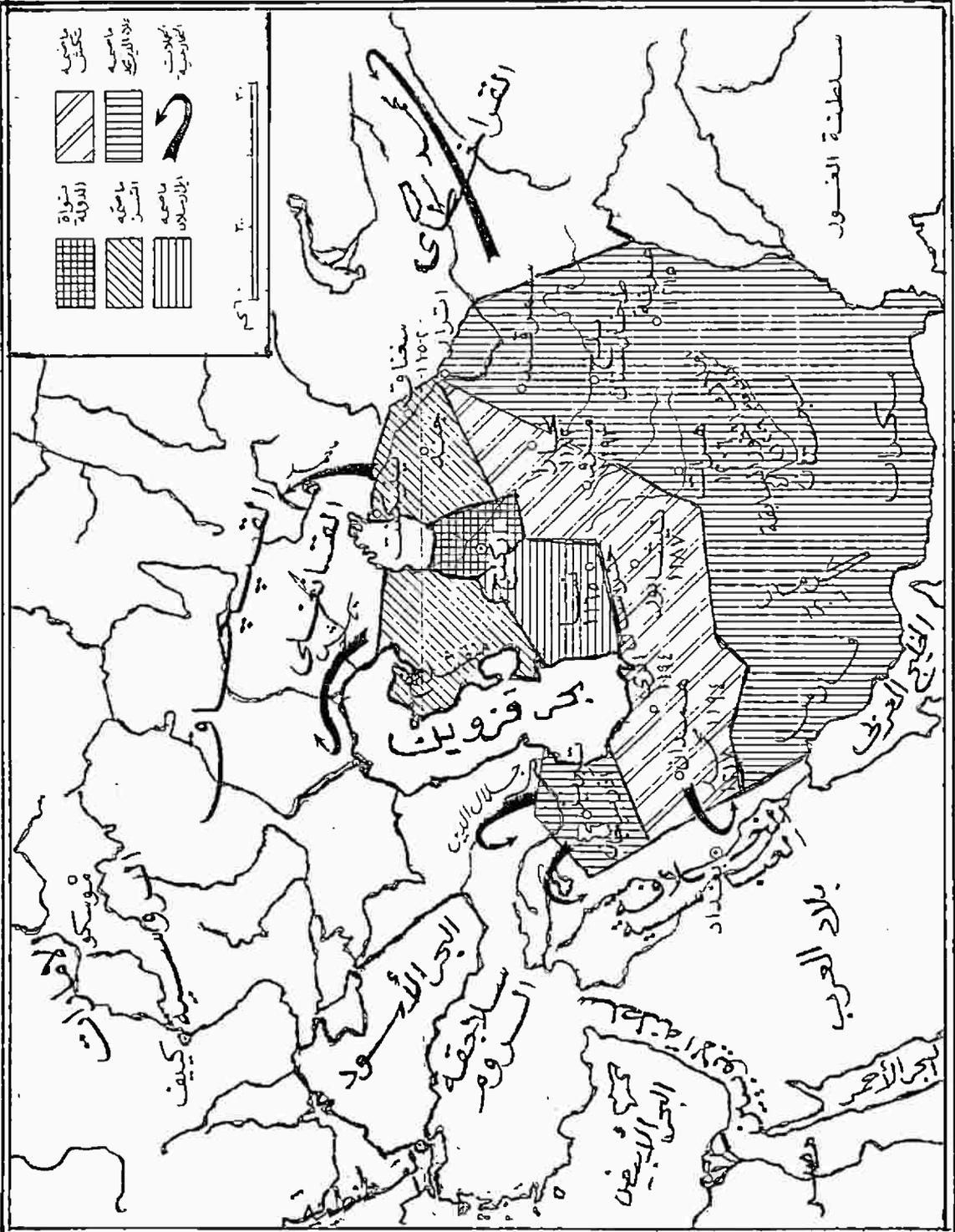
وفي الحقيقة لم يكن لدى جنكيزخان آنذاك أية دوافع تحركه ضد الخوارزميين أو سلطانهم، فقد كان مشغولاً في أقصى الشرق بتوطيد سلطانه على الصين الشمالية التي استولى على عاصمتها بكين سنة ٦١٢هـ^(٤) وكذلك مطاردة خصومه في غربي منغوليا من القبائل المغولية المناوئة له من

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٥٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص ٣١٧.

(٢) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ص ٢٦، ١٠٨٥، فامبيري: تاريخ بخارى ص ١٥٧، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٢٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٢٤٠، ميرخواند: روضة الصفا ج ٥ ص ٧٧ - ص ٧٨، الصفدي: الرافعي بالوفيات ج ٢ ص ٢٧٧.

(٤) جروسية: جنكيزخان قاهر العالم ص ٦٥١، توارد بروني: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٥٩.



سلطنة الغور

التجارة

بكر فزولين

بلاط العرب

البحر الأحمر

البحر الأبيض

البحر الأبيض

البحر الأبيض

موسكو

كييف

- الدولة
- مناصحه
- بلاط الديرية
- التجارة

٠ ٢٠ ٤٠

المركيت والنديمان^(١) فأثر أن يتريث في تحديد علاقته مع السلطان الخوارزمي حتى تتضح الأمور.

أياً كان الأمر، فقد عجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله. إذ هبت على جيوشهم عند أسد آباد التي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني إقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة إلى بلاده^(٢).

ولم يستفد الخوارزميون من الظروف التي كانت تشغل المغول ولا من المعاهدة التجارية التي جرى إبرامها بين سلطانهم علاء الدين وجنكيز خان سنة ٦١٥هـ^(٣)، كما لم يستفيدوا عسكرياً من التجربة الحربية التي خاضتها القوات الخوارزمية بقيادة السلطان نفسه والتي عجزت فيها عن إلحاق الهزيمة بجيش مغولي صغير كان يقوده حوجي بن جنكيز خان مطارداً قبائل المركيت المغولية المناوئة التي فرت غرباً إلى حدود نهر أرتيش شمالي خوارزم^(٤).

أما أكبر الأخطاء التي وقع فيها السلطان الخوارزمي فكان الإغضاء عن النصيحة الصادقة التي أسداها إليه المخلصون بأن يجمع جيوشه كلها في

(١) رشيد الدين: تاريخ جنكيزخان ص ١٧٩ (مخطوط) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٦.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٦٤، العريضي: المغول ص ١١٣.

Howorth: history of the mongols vol I. p. 8.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٢٤١، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ٥٠.

(٤) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٥٣٢، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ٩٦.

مكان واحد تحت قيادته قبل لقاء المغول، وألا يفرقها بين كبريات المدن الإسلامية الواقعة على خط المواجهة المرتقبة معهم، حتى لايسهل على هؤلاء المغول القضاء على تلك المدن الواحدة تلو الأخرى^(١).

ولما كانت جيوش المغول آنذاك على أعلى درجة عسكرية بالقياس لغيرها من الجيوش الأخرى، وبخاصة في حسن التدريب وسرعة الحركة والمناورة وبراعة التخطيط للحرب^(٢) فقد كان طبيعياً أن تنجح في اجتياح معظم أراضي الدولة الخوارزمية من شرقيها إلى غربيها في مدة يسيرة لم تتجاوز بضعة سنوات قليلة، ولا غرو أن فرَّ السلطان الخوارزمي علاء الدين بنفسه منذ بداية الحرب سنة ٦١٦ هـ حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة نائية في بحر قزوين حيث لفظ أنفاسه كمدأ على ضياع مملكته الشاسعة وعلى نسائه اللاتي وقعن أسيرات - وعلى رأسهن أمه ترکان خاتون - في أيدي المغول عند قلعة مازندران سنة ٦١٧ هـ^(٣).

ولم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي (٦١٧ - ٦٢٨ هـ) أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة ٦١٨ هـ^(٤) إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند أثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده وبالتالي هزيمته

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٩٠، ص ٩١.

Schneider, mediaeval researches from Eastern Asitatic Sources: vol II. p. 58

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٥٥٣، ف. يان. الصيني: جنكيزخان سناح الشعوب ص ٩٧، ص ١٦٤، جروسية : جنكيز خان قاهر العالم ص ٢٩٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٧٣، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٦٤.

(٤) النسوي : سيرة السنطان جلال الدين منكبرتي ص ١٥٤. المويري : نيابة الأرب ج ٢٧ ص ٢٥٦، جروسية : حكيك خان قاهر العالم ص ٣١٤.

أمام جيش جنكيز خان في نفس العام^(١) .

قبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة ٦٢١هـ، قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه قد آثر أن يضع نفسه وما تبقى من جيشه في أبعد نقطه عن متناول جيوش المغول، ومن ثمة فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل إنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد الدين أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم إقليم يزد^(٢) .

وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين - الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين وتوطد حكمه فيها بعد انسحاب المغول منها عائدين في اتجاه الشرق - قد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين^(٣) الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية .

وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين الله في شوال سنة ٦٢٢هـ، ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر إذ توفي في رجب سنة ٦٢٣هـ^(٤) ،

(١) الجويني : تاريخ جنبنا نكشاي ج ٢ ص ٤٦-٤٧، العريني: المغول ص ١٣٦ .

(٢) التويري : نياية الأرب ج ٢٧ ص ٢٦٥، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧

ص ٢٦١، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) الخويني : تاريخ جنبنا نكشاي ج ٢ ص ٥٥، عفاف صبيرة: التريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٢٠ .

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٤، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٣٦ .

فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ) الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين ومن ثمة فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين^(١).

ومن ناحية أخرى انشغل المغول بوفاة الخاقان الأعظم جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ^(٢) وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي (المؤتمر العام الذي يناط به اختيار الخان الجديد) مدة عامين أدار خلالهما تولوي بن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخاب أوكتاي ثالث أبناء جنكيز خان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م^(٣).

وفي تلك الاثناء كان السلطان جلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس^(٤) وانتقم منهم لما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقليم أذربيجان المجاور.

وجاء استيلاء الخوارزميين في الثامن والعشرين من جمادي الأولى سنة ٦٢٧هـ على مدينة اخلاط^(٥) التابعة - آنذاك - للملك الأشرف بن العادل

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٠٧، النوبري: نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٢٨٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٢٨، جيروسيه: جنكيز خان قاهر العالم ص ٣٧٢.

(٣) بارثولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٦٤٩، هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٢.

Howarth: History of the mongols. Vol I. P. 130

(٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٢١١ - ٢١١، العريني: المغول ص ١٧٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٨٨، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٧٩.

الأيوبي بداية لنهاية سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي الذي تعرض جيشه لهزيمة مريرة أمام تحالف جيش الأيوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان، وأرسل جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة^(١).

ولم يضيع الإسماعيلية في آلموت الفرصة السانحة - بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إنه اضطرهم إلى دفع أتاوة سنوية له - فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء عليه^(٢)، قبل أن يسترد قوته.

وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، فقد جاء انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان سنة ٦٢٦هـ خانا أعظم للمغول إيداناً بتنفيذ استراتيجيات مغولية جديدة تمثلت في غزوات عسكرية متوالية على جبهات ثلاث هي جنوبي الصين، وغربي إيران وشرقي أوروبا.

وما يهمنا في هذا المجال هو الحملة الثانية التي كانت ترمي إلى إعادة تثبيت سلطان المغول على مختلف غربي إيران وبخاصة الشمال الغربي^(٣) حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جلال الدين.

وسرعان ما بادر هذا الأخير - رغم الخلاف - إلى مكاتبة الخليفة العباسي المستنصر بالله، والملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة،

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ١٧، ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢١٢ - ٢١٣،

عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٤٠.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٤٤، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٥٢٤.

(٣) ستيفن رسيان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٣١، العريني: المغول ص ١٧٥.

والسلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وغيرهم من أمراء المسلمين حكام ميفارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فاحجم هؤلاء كلهم عن مناصرته^(١).

سقوط جلال الدين :

أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في الآف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه، وسقوط هيئته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته.

وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدى القوى السياسية في المنطقة، فقد أيقن معظم أمراء الجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق والمؤيد من قبل أخيه السلطان الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط^(٢) كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس^(٣).

ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها

(١) الجويني : تاريخ جيبانكشاي ج٢ ص ٨٦، التوبري : نهاية الأرب ج٧ ص ٢٧٤ - ٢٩٥.

(٢) ابن البيبي : مختصر تاريخ سلاجفة الروم ص ٢٢٣.

(٣) العريني : المغول ص ١٨٠.

للخوارزميين، واجترأت على قتل البعض منهم^(١) وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماثلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي^(٢).

أما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم.

كل هذه المؤشرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأقول نجم سلطانتها الأخير جلال الدين منكبرتي الذي كان قد وقع - عقب هزيمته السابقة - في أخطار عديدة منها - :

أ - ضعف نظام استطلاعهم، فقد وقعت إحدى سراياه في أيدي المغول عند مدينة الري، بينما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عودة المغول، وتحاذلت الثالثة، فلم يذهب أفرادها إلى ما زندران أو خراسان كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه^(٣).

ب - اعتقاده الخاطيء أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه إلى أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتتهم له على غير استعداد منه، فاضطر إلى ترك نسائه في العراق على مقربة من مدينة تبريز، وسارع هو

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٩، ص ٣٦٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص ١٢٦، ويذكر النسوي الذي توجه إلى الإسماعيلية ليفاوضهم في أمر سداد الأتاوة أن الأمر قد تقرر على أنهم يزنون منها عشرين ألف دينار، ويميلهم النسوي في العشرة الباقية ريشما يشاورون فيها السلطان .. انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٤٢.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٢، الجويني: تاريخ جهنم نكشاي

ج٢ ص ٨٨، رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص ٤٦.

إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك^(١).

ج- إلحاحه في مكاتبه الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاقه - رغم نصيح خلصائه له بعدم جدوى ذلك - خاصة وأنه أي جلال الدين قد دخل بزوجة الملك الأشرف الكرجية - نسبة إلى بلاد الكرج - في ليلة اقتحامه مدينة أخلاق - وأصرَّ على الاحتفاظ بها حتى بعد انهزامه من جيش الملك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة ٦٢٧هـ^(٢) كما سبق القول.

د - تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي - رغم حرج موقفه بعد الهزيمة السابقة واقتراب خطر المغول منه - للهجوم على مدن خرطبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم، فأغار هؤلاء الفرسان الخوارزميون على تلك المدن الرومية، وساقوا إلى المعسكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار^(٣) وكشف هذا الإجراء من قبل السلطان الخوارزمي عن فقدته بصيرته السياسية إذ إنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حدوث تغيير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه.

هـ- انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقى المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الاتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم

(١) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٠٤ ، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية المغول ص ١٩٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٦٣ ، ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ص ١٥ .

D'Ohsson: Histoire des Mongols. Vol 3. P. 42

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٧٣ .

الجبال، وغيّر مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، رفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً^(١) ومضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

و - وضع ثقته المطلقة في « أوترخان » الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة، إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجر، وأشار عليه - في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله - بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه من جميع الوجوه بتدبيره - كما يقول النسوي - ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميفارقين لما كان بينهما من مكاتبات^(٢).

ز - وقوعه في العديد من الأخطاء الشخصية وأهمها :

١ - انكبابه على تعاطي الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحرق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لا يملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية، وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده - في ميدان الحرب - بإعمال العقل والتركيب بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى^(٣).

٢ - حادثة خادمه قلعج، وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال

(١) التويري : نهاية الأرب ج٢٧ ص ٢٩٥، ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ج٧ ص ٣٠٢.

(٢) النسوي : سيرة السلطان حلال الدين منكبرتي ص ٣٧٥، ص ٣٨٠.

(٣) الخريني : تاريخ حيا نكشاي ج٢ ص ٨٩، رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء،

حكيم خان) ص ٤٦. تراوي : تاريخ الأدب في إيران ص ٥٧٢.

الدين يرعاه، فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة، ومشى بعض الطريق راجلاً، فالتزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي، واستصحبه معه حيث سار، وهو يلطم ويبكى، ثم امتنع عن الأكل والشرب، وكان إذا قُدم له طعام يقول: «احملوا منه إلى قُلج» ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات، فإن قيل له مرة إنه مات، قتل القائل، فكانوا يحملون إليه الطعام ويعودون فيقولون: «إنه يقبل الأرض، ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت» فلحق أمراؤه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه إلى وزيره، فبقى حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول إليه^(١).

أما الوزير، فقد تسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها، وجاهر بالعصيان فيها، وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران وآذربيجان لنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة بهما، فكاتب علاء الدين كيقباز، والملك الأشرف باذلاً الطاعة لهما، وناعتا سلطانه (جلال الدين) بالظالم المخذول في كتبه^(٢).

وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى إنه قبض على كل من عبر بحدود

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٤٩٦، ص ٤٩٧، أبو الفدا: المختصر ج٣ ص ١٤٧،

النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص ٢٩٣ - ص ٢٩٤.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٧، وحيزان من مدن أرمينية الكبرى

قريبة من شروان. انظر باقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٣٣١.

قلعته من أصحاب السلطان في أثناء الجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب، ثم استلب أموالهم^(١) بل إنه كاتب حسام الدين قلعج أرسلان أكبر أمراء التركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وإنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه^(٢) فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله^(٣).

٣- إصداره الأمر - لما دهمه المغول آخر مرة - إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول، ويخلص هو بمفرده، ولقد أخطأ في ذلك - كما يقول النسوي - فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان، وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظلّ على قيد الحياة بفارس إلى سنة ٦٣٩هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهور سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي^(٤).

أيا كان الأمر، فإن هزيمة السلطان جلال الدين أمام المغول عند آمد، وفراره إلى إحدى القرى القريبة من ميفادقين، ثم صعوده إلى جبل مجاور يسكنه الأكراد، قد انتهى به إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاء الأكراد، فقتله أحدهم في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / أغسطس سنة ١٢٣١م^(٥).

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٧.

(٢) الجوسي : تاريخ جنبنا نكشاي ج ٢ ص ٨٧، رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٤٥، العربي : المغول ص ١٧٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٩٧، خواندمير : دستور الورداء ص ٣١٢.

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٧٩، أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٠، السويدي : نياية الأرب ج ٢٧ ص ٢٩٦.

(٥) ابن واصل : مفرج الكرب ج ٤ ص ٣٢٢، العربي : المغول ص ١٧٧، القريني : الملوك

لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٢٤١.

ونما خبر مصرعه إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين فأمر بإحضار من قتله، فأحضره فأقرَّ بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان «أوترخان» السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره، فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان انظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى، وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش^(١).

ثم أمر المظفر غازي بشنق القاتل وأخوته وقتل أهله وأقاربه وقال: مثل هذا السلطان الكبير الشأن يجسرون عليه، والله لو أحضره إليّ حياً لأغنيتهم^(٢).

وفي الحقيقة لا يخرج هذا الموقف الدرامي من قبل صاحب ميافارقين عن مجرد كونه إجراءً شكلياً ذا طابع انفعالي مؤقت؛ ذلك أنه لم يشأ ولم يكن بمقدوره الخروج عن السياسة العامة التي انتهجها الأيوبيون جميعاً حيال المغول والتي كانت تقضى بعدم الدخول معهم في أية مواجهات عسكرية أياً كانت الأحوال، ويفسر ذلك أهم أسباب إحجام هؤلاء الأيوبيين عن تقديم أية مساندة عسكرية للسلطان جلال الدين في صراعه المرير ضد المغول.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٩ - ص ٦٧٠، النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٣ - ٣٨٤، أما الجويني: تاريخ جهانكشاي ج ٢١ ص ٩٣، وعنه ينتقل رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ حلفاء جنكيز خان) ص ٤٦، فيضع صاحب آمد الملك المسعود مكان صاحب ميافارقين الملك المظفر غازي ويضيف بأن الملك المسعود بنى مدفناً يليق بالسلطان الخوارزمي في «آمد» وليس هذا صحيحاً، لما أثبتته في المتن من العلاقة السببية بين السلطان الخوارزمي وصاحب آمد وأهلها ولأن جبال الأكراد تقع على مقربة من ميافارقين لا آمد.

(٢) ابن نعيم: تاريخ الأيوبيين ص ١٨، ابن أبيك الدواداري: كثر الدرر ج ١ ص ٢٠٣.

التمزق الخوارزمي :

لما كان المغول قد أوقعوا بالسلطان جلال الدين وهو بظاهر آمد، ومضى منهزماً إلى جبل الأكراد القريب من ميفارقين وكان من أمره ما سبق الإشارة إليه، فقد تفرق من كان معه من العسكر، وتمزقوا في كل وجه^(١).

فقد تسحب خاله ومعه جماعة إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب ميفارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حران وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الملك الأيوبي الكامل، فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم عسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعه حران، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها^(٢).

أما حظية السلطان التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان، وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياها إلى أن ماتت في أيامه^(٣).

وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين، والموصل، وسنجار، وإربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم^(٤).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٤٩٨ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٧٠ .

(٢) ابن نطفة الحموي : التاريخ المنصورى ص ١٥٧ ، ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ج٧ ص ٣٠٢ .

(٣) ابن واصل : مغرر الكروب ج٤ ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير : لكامل في التاريخ ج١٢ ص ٤٩٨ ، نافع العمود : الدولة الخوارزمية ص ١٦٧ .

وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم^(١) على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون - الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود - وبلاد الكرج المجاورة^(٢).

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافقت لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظل في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة.

أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباز بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفي في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت / ٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

(١) ابن واصل : مفرج الكرب ج٤ ص ٣٢٥، ابن خلدون : العبر ج٥ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسنش : بلدان الخلافة الشرفية